نظريات البْليهي: مفاتيح لفهم فكره ومنهجه

ألقيت الورقة في حفل تكريم المفكر الأستاذ إبراهيم البليهي بالقطيف بتاريخ ٣ جمادى الآخرة ١٤٤١هـ الموافق ٢٨ يناير ٢٠٢٠م

الأستاذ هشام قربان
كاتب ومؤلف ومفكر
مهتم بالشأن العام

لماذا نحتفي بالأستاذ المفكر إبراهيم البْليهي؟

أرى في ضوء دراستي أن هنالك العديد من الدواعي المنهجية والأسباب الوجيهة للاحتفاء بالأستاذ البْليهي وفكره، منها ما يتميز به فكر الأستاذ البْليهي من:

١. المنهجية والتنظيم والتكامل.

٢. وآثاره الريادية النوعية والشمولية.

٣. وعمله على جبهات اقليمية وعالمية في خدمة الإنسانية.

٤. ومساهمته المحورية في تشخيص حالات الانغلاق والانعتاق الثقافي في التاريخ الإنساني عمومًا.

٥. مشروعه الأكبر ذي الصبغة الإنسانية الهادف لتأسيس علم الجهل وتحرير عقل الجنس البشري كله!

٦. وعمله المنهجي المتواصل والصبوروالمتنامي في مشروعه الإنساني لأكثر من خمسين سنة.

٧. ولتلك **الدغدغة الفكرية** المبهجة التي ينشرها فكر البليهي الماتع في عقول الملايين من البشر!

نظريات الأستاذ البْليهي

هي أجزاء مقصودة، متدرجة، ومتكاملة يضمها نسق رابط

ومُنظِّم، وهي كذلك بمثابة خطوات في مشروع ذي صبغة إنسانية عالمية، ولكل جزء له موضعه وترتيبه متكاملاً مع الأجزاء الأخرى.

وهي خمس نظريات، منها نظرية مركزية.

عناوين هذه النظريات

- نظرية أن الإنسان كائن تلقائي.
- نظرية أن العقل البشري يحتله ويصوغه ويتحكم به الأسبق إليه.
- نظرية أصالة الجهل.
- نظرية الريادة الفردية الخارقة والاستجابة المجتمعية والمؤسسية.
- نظرية عبقرية الاهتمام التلقائي.

يلخصها هذا الشكل التوضيحي المعروض أدناه:.

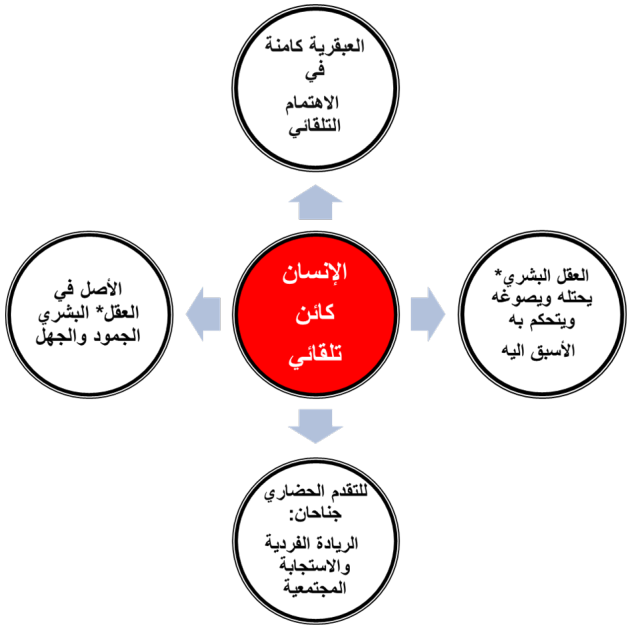

الشكل التوضيحي: نظريات المفكر إبراهيم البْليهي الخمس

نظرية البْليهي: أن الإنسان كائن تلقائي

لا يولد الإنسان بعقل جاهز إنما يولد الإنسان بقابلياتٍ فارغة، غير متشكلة، مفتوحة، ومتعطشة، ومرنة، وتتفاوت من شخص إلى آخر قابلياتٌ مطواعةٌ وقابلة للتشكل بمن يسبق إليها من أي نسق ثقافي، مهما كان نوع، واتجاه، ومحتوى هذا الأسبق، حتى لو كان هذا الأسبق عِواء الذئاب!

إن الدماغ هو جهاز العقل، أما الحواس المختلفة فهي منافذه.

وتنقل الحواس إلى قابليات الإنسان العقلية الفارغة وتملؤها بالمشهودات، والمحسوسات، واللغة، ومعايير الاستحسان والاستهجان، والمقبول والمرفوض من البيئة المحيطة به في سنين الطفولة الأولى، ويشار إلى هذا بالتشكل التلقائي فيتشرب الإنسان هذه المعارف تشربًا تلقائيًا.

وتبين الأبحاث أن عقل المولود لا يملك آلية للتفريق بين الصواب والخطأ، والوهم والحقيقة، والحقيقي والخيالي مما بداخله لذا لا يمر هذا الملء والتشكيل التلقائي للعقل بأي معيار نقدي أو تحقق فيعالج الدماغ كل ما تشربه ووصله من معلومات، أوما يتخيله ويحيلها إلى أنماط ذهنية ووجدانية مختلفة لكل فرد، بحيث لا يتماثل اثنان أبدًا، حتى لو كانا توأمين وربيا في بيئة واحدة وبهذا يتشكل عقل الإنسان تلقائيًا خلال السنين الست الأولى من طفولته بصيغة أدق: تتشكل نسخةٌ تلقائية من الإنسان مماثلةٌ لنسق الثقافة السائدة في محيطه عن طريق ما يسميه البْليهي التناسلَ أو التناسخ الثقافي أو التنميط.

ولا تختلف هذه النسخة المتشكلة تلقائيًا عن نظائرها من النسخ في نسقهم الثقافي المشترك إلا بمقدار اختلاف القابليات

وما أضيف اليها تلقائيًا، ثم قصدا بالتربية والنشأة وبعد مرحلة الطفولة تصبح هذه البنية الذهنية التأسيسية بأنماطها الذهنية التلقائية: مرجعية الفرد المعرفية.

وتتحكم في الأفراد هذه الأنماط الذهنية التلقائية التأسيسية دون أن يدركوا ذلك إن لهذه الأنماط التأسيسية أهمية نوعية قصوى للجنس البشري، فبها يتحدد اتجاه الفرد، ومساره، ومسلماته، وبداهاته، ونظام تفكيره، وولآءته في نسقه الثقافي المحيط به.

هذا التشكل التلقائي يجعل العقل الإنساني صناعة تلقائية كما تُقيم كل ثقافة حولها الحصون والمتاريس لتحمي نفسها، وتُعزز أنساقها السائدة، وتحافظ على واقعها كما هو، بغض النظر عن صحته أو خطأه إن التعود من خصائص الإنسان، ولا يشعربهذا التعود، ولا يستنكر العقل ما اعتاده، ولا يرى نقصًا أو خللًا فيه ظانًا أنه اكتسبه بذاته وبجهده، والحقيقة أنه تشربه تلقائيًا بلا نقد أو تحقق.

كما أثبت علم دراسة فسيولوجية ووظائف الدماغ أن الأنساق التأسيسية، وما يَتطبع به الفرد تلقائيًا، وما يعتاد عليه اعتيادًا، وما يُكررفعله، كل هذا يُغلَّف داخل دماغ الإنسان بمادة كيميائية عازلة تدعى: مايلين (Myelin)، ويزداد هذا التغليف الانتقائي العازل بمقدار التكرار والتعود والرسوخ، ومهمة التغليف العازل لهذه المعلومات إخفاؤها عن رقابة الوعي، لتصبح تلقائية.

إن التشكل التلقائي للإنسان وفق أنموذج الثقافة السائدة ليس كيانًا هشًا، بل هو بمثابة كيان أو بناء صلب، أونسيج محبوك ومترابط، يصعب تغييره بمجرد تعريض العقل لمعلومات جديدة أو مغايرة.

إن المعلومات ـ عمومًا ـ بذاتها غير نافعة في تغيير البنية الذهنية التلقائية، لأنها غالبًا ما تُسخر لخدمة اتجاه مبرمج حددته سلفًا الثقافة السائدة فليست العبرة بمجرد حيازة المعلومات وإيصالها، ولكن العبرة في طريقة الإفادة المنهجية من هذه المعلومة.

إن العلم بحق ليس إضافة وتكديسًا للمعلومات في جهة حددت سلفًا، بل العلم طريقة تفكيروتصور، وطريقة للتحقق والتعامل الموضوعي، وبلورة رؤية للإنسان والمجتمع والكون والمستقبل، ونقد وتغيير للتصورات بإحلال التصورات التي تحققنا منها علميًا مكان التصورات الخاطئة التي تشربناها تلقائيًا بلا نقد وتحقق.

لذا نجد أن الصور الشكلية والتلقينية لأساليب التعليم النظامي العام قليلة الفائدة لأنها تكرس التناسخ الثقافي، وحتى من يدعي تعليم الناس وبرمجتهم في كل ثقافة هو في حقيقته مبرمج مثلهم.

إن النمو البشري وفق التلقائية هو استنساخ ثقافي فقط، وليس تجديدًا لايحدث النمو الثقافي الحقيقي عن طريق هذا الاستنساخ التلقائي، بل يحتاج النمو إلى نوع وقدرمن القطيعة المعرفية مع الثقافة السائدة، قطيعة توقف التعزيز المستمر لها، والدافع لها لمواصلة رحلة استنساخها الثقافي التلقائي.

إن انعتاق الإنسان من تشكل عقله التلقائي ليس سهلًا، بل ويحتاج إلى استفزاز شديد جدًا وجهد غير عادي!

لا يأتي الانعتاق والإفاقة من أسر الثقافة التلقائية اختيارًا، بل هو نتيجة صعبة لحصارالأسئلة الدافع للشك والنقد والبحث والمراجعة والتحقق المنضبط بالمعايير العلمية.

لا يستطيع ٩٩٪ من الناس أن يتحققوا من تلقائيتهم بأنفسهم.

انكسار تلقائية الفرد هو قدر لا اختيار له فيه، ولم يخطط له الفرد.

ويحتاج العقل لمن يتحداه ويستفزه لكي يتحرك وينمو، ولا يفيد العقل ممن يحميه لأنه يقيده ويعطله.

يشبه الانعتاق من أسر التلقائية الإذابة للمواد والتفكيك وإعادة الصياغة في قوالب مختلفة

أما انكسار تلقائية المجتمع فهذا أمر يمكن التخطيط له - مع ضخامة هذا المشروع.

لايكفي الذكاء البشري مهما علا للانعتاق من التلقائية، فقد يكون الإنسان ذكيًا مهنيًا أو مهاريًا وفي تخصصه، ولكنه في حقيقته مستلب للثقافة السائدة، وسيظل مستلبًا ما لم يُستفز وينتبه بما يكفي إلى تلقائيته وبرمجته الأولى.

إن ما يتبرمج به الإنسان تلقائيًا يظل محميًا عن عقله الناقد، وكل ما يتعلمه من علوم ومهارات حياتية لا يغير في البرمجة التلقائية.

يحتاج الانعتاق من التلقائية إلى بيئات تتوفر فيها حريات كاملة، تُثمن فردية الإنسان، وتُعلي قيمته، حيث يتعرض العقل لصراع الأفكار والنقد وصدمات في الفكر، وأحيانًا ينتج هذا الصراع قدرًا من كسر التلقائية والإفاقة والقطيعة الفكرية مع الثقافة السائدة.

وليس أمام الفرد إذا انكسرت عنه تلقائية التنشئة بوعيها الزائف، وغبطتها الساذجة المشتركة، وبداهاتها التلقائية، أي مفر إلا أن يواجه الفراغ النفسي المرعب، وأن يتحمل مسؤولية ذاته، ويجتهد في تكوين وعي ذاتي جديد، ورؤية ذاتية، يقتنع بها،

لكي تزيل عنه الكرب، وتطفيء القلق بداخله، وتعيد الطمأنينة إلى نفسه المضطربة، وبذلك يكتسب تلقائية جديدة وبديلة، بوعي ذاتي ممحص، أما إذا عجز الفرد بعد انكسار تلقائيته عن بلوغ الاطمئنان فانه يبقى حائرًا وغير مستقر نفسيًا، لأن ليس لديه قاعدة معرفية يثق بها تلقائيًا.

إن اختلاف تاريخ الأمم مصدر لاختلاف عقليات الأمم، وبهذه الاختلافات تتشكل أنساق ثقافية إنسانية تلقائية عديدة، متباينة ومتنوعة، وهكذا تتباعد الأمم بمقدار الفروق بين الأنساق الثقافية، والتي تتكون وتتشكل وتتراكم تلقائيًا بلا فحص أو نقد أو مراجعة.

وإذا لم تمر هذه الانساق الأممية التلقائية بتصحيح حقيقي، فمآلها مهما امتدت القرون أن تُستنسخ وتستمر كما هي في المراحل التالية لتكوينها، وتُتوارث، وتُعمق مجراها، إلا إذا حدث تصحيح حقيقي ينتج قطيعة معرفية، تقهر النسق السائد، وتسكت حُماته وأتباعه.

هذا يبقي الشعوب بلا استثناء مرتهنة لأنساقها وكياناتها الثقافية المتوارثة، ولا يصح استثناء أو تمجيد الشعب اليوناني من هذا، لأن مصدر ومضة الضياء الفكرية اليونانية هو بضعة أفراد استثنائيين فقط، ولم يكن الشعب كله، فلقد طارد الشعب اليوناني مفكريه، وأعدموا سقراط بحجة أن أفكارَهُ مُفسدةٌ للشباب.

إن خروج أي مجتمع من قوقعة التلقائية الاجترارية المنتظمة، وما يعنيه من قهر للأنساق المتحكمة، وكسر للانتظام، ثم اقتحام آفاق جديدة يشبه هذا الخروج ولادة طويلة وعسيرة، ولادة تصحبها آلام وتمزقات حتمية، وما يعقبها من التوتر والجيشان والاضطراب إلى أن تتكون تلقائية بديلة،

حتى يحصل الاستقرار، وتلتئم الجروح، ويعود الانتظام.

لا يتحول أي مجتمع من أسر الدوران الأفقي إلى مسار الدوران الصاعد إلا بوجود وظهور قيادة فاعلة ومستنيرة، كما تتطلب كل قفزة حضارية نوعية قدرًا من القطيعة مع وضع قائم متوارث ونسق سائد.

تطبيقات نظرية البْليهي: أن الإنسان كائن تلقائي

نفهم من خلالها كيف تشكلت عقولنا وأمثالنا وبرمجتنا التلقائية في ثقافتنا السائدة المحيطة، كما نفهم كيف تشكلت وتبرمجت عقول الآخرين تلقائيًا في الثقافات المغايرة.

نقر أننا جميعًا: نحن وإياهم مبرمجون تلقائيًا بثقافاتنا السائدة بلا نقد أو تحقق، كما تكشف لنا الأساس الضعيف للتعصب التلقائي لأجناس البشر حول كثير من الأمور، تعلمنا التواضع، وتخفف التعصب، وتتحدى وتخلخل الشعور الواهم باحتكار الحقيقة، تمهد للسلم المجتمعي والدولي، وتبني جسورمنهجية للتفاهم والتعاون، وينقل البليهي مقولة عن الدكتور ـ هنري ماركرام: رئيس المشروع الأوروبي للدماغ البشري (أعتقد بإخلاص أنه لو فهم العالم كيف يعمل الدماغ، فسوف تُحلُّ النزاعات في كل مكان).

تقرر النظرية بوضوح أن الطريق إلى الحقيقة في كل ثقافة بلا استثناء هو:

- كسر التلقائية.
- تدعو للنقد الذاتي والشك، ومراجعة البداهات والمسلمات الدنيوية، ونعرف من خلالها ونتفادى أهم أخطار التلقائية وهي:

١. الجمود ورفض النقد ونبذ الرواد ومحاربتهم.

٢. تدفعنا للتفكير في مصادروأساليب مقصودة تحت بعض الاستفزاز الكافي لكسر التلقائية؟

٣. نعرف بها حجم الجهد المطلوب لكسر تلقائيتنا الإنسانية، فكلما زاد التخلف زاد طردًا الجهد المطلوب للانعتاق من أسر الثقافة التلقائية التي تشربناها بلا تحقق أو نقد.

إن ما حققه العقل البشري إلى الآن من تقدم فكري وتقني هائل ومذهل يظل بكل المقاييس منتجًا صغيرًا وضئيلاً إذا ما قورن بالحجم والقدرات الحقيقية للعقل والعبقرية البشرية التي لم تُحرر بعد.

إن نظام التفكير والتعليم المهيمن في العالم هو النظام التلقائي، وهو نظام خطي، كما يشير البْليهي إلى ملاحظة مهمة: إن الدراسة التخصصية الحالية لا تنقل الدارسين من نظام تفكير التلقائي الخطي إلى نظام التفكير الفلسفي النقدي، وهو نظام فكري فردي ونُخبوي بطبيعته، وليس نظامًا للتفكير الجماعي، وهو نظام غير خطي، ومضاد للتفكير التلقائي الخطي، ونظام التفكير الفلسفي النقدي مفتوح على كل الاحتمالات.

ويؤسس التفكير الفلسفي النقدي على الاعتراف بنقص المعرفة البشرية، وهشاشة العقل بتشكله التلقائي، وأصالة الجهل، وأولوية الخطأ، وتلقائية الوهم، كما يلتزم التفكير الفلسفي التحليل والدقة والحياد قدر الإمكان.

ويقوم التفكير الفلسفي على تعليق الحكم على الأمور، واستمرار قابلية الأفكار للتصحيح والتعديل والدحض والتفنيد، وهو نظام غير عام، وغير قابل للتعميم والتلقين، لأنه فوق مستوى فهم عموم البشر.

تتلخص أفكار ونظريات البُليهي في:

- مشروع عالمي متكامل وضخم:

١. ذو صبغة إنسانية عالمية.

٢. يؤسس علم الجهل.

٣. يهدف إلى تحريرعقل الجنس البشري كله.

مُنتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum